Journal of Alasmarya University
Volume 1, June 2003

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الأول، يونيو 2003

عناية الرسول ﷺ بتوثيق النص القرآني

الدكتور
رجب محمد غيث
جامعة المرقب

عناية الرسول ﷺ بتوثيق النص القرآني

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد. . .

فإن الحديث في القرآن وعن القرآن لا ينتهى، إنه لا يحده فكر بشري ولا يقيده تصور إنساني، ذلك الكتاب الذي وصل إلينا بطريق التواتر، بحيث لا يمكن الشك ـ مطلقاً ـ في أنه وصل إلينا كما نزل على سيدنا محمد ﷺ دون زيادة أو نقص. فالاستقراء الموضوعي يؤكد أنه لم ينقل عبر القرون كتاب سماوي بالتواتر القطعي، والإسناد الصحيح، عن العدول الضابطين، طبقة بعد طبقة، مثلما وقع للقرآن الكريم نصا ورسما ،فقد تلقاه الصحابة من النبي ﷺ مشافهة، ورسمه عنه كتّاب الوحي بالطريقة المعهودة حرفا حرفا، لم يهملوا منه حركة، ولا سكونا، ولا إثباتا، ولا حذفا.

وقد تحامل أعداء الإسلام على القرآن الكريم، ولم يتركوا منفذاً ينفذون منه للتشكيك في صحته إلا سلكوه، وما ادعاؤهم عدم تدوينه ـ فور نزوله ـ في الفترة المكية إلا جانبا من جوانب التشكيك في صحته. وعلى

الرغم مما تتناوله بعض الروايات من أن الكتابة في حواضر الحجاز ـ زمن البعثة ـ لم تكن واسعة الانتشار، وأن وسائلها بدائية، وغير ميسورة للجميع، فإن هناك كتّابا وكتابة منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن الكريم.

وهذه الدراسة تلقي الضوء على مراحل وكيفية تدوين القرآن الكريم فور نزوله مباشرة من قبل فريق من كتّاب الوحي، وتفند المزاعم التي تدعي غير هذا.

كتّاب الوحي:

لم تقف عناية الرسول ﷺ والمسلمين بالنص القرآني ـ إبان نزوله ـ عند حدّ الاهتمام بقراءته وحفظه بل تجاوزته إلى أكثر من ذلك، فقد عني النبي ﷺ وأصحابه بكتابته وتدوينه، وبذلوا في ذلك أقصى جهد بشري ممكن في ضوء إمكانات عصرهم . ولا يرتاب أحد ـ من الناس ـ في أنه قد كان للنبى ﷺ كتّاب يكتبون الوحي ويبقى السؤال المطروح: كيف؟ ومتى بدأ هذا العمل؟.

وعلى الرغم من أن قومه ﷺ من قريش وصفوا بالأمية، فإن هذا الوصف لا يعني أن الأمية فيهم مطلقة، بدون استثناء، فالواقع أن الأمية فيهم هي القاعدة ومعرفة القراءة والكتابة هي الاستثناء، ونستند في ذلك إلى وقائع منها:

1. ما تؤكده المصادر[1] من أن صحيفة كتبت في مكة، كتبتها قريش لإعلان الحصار الاقتصادي، والاجتماعي، على بنى هاشم وبني المطلب، جميعاً ـ عدا أبي لهب ـ وقد علقت الصحيفة في جوف الكعبة، ولم تنقض مدة الحصار حتى أكلتها الأرضة، ولم تترك منها شيئا إلا باسمك اللهم.

(1) انظر إنسان العيون جـ 1/ 274. زاد المعاد 2/ 42.

2. ما جاء في قصة إسلام عمر بن الخطاب (ت23 هـ) ﷺ من أنه وجد في بيت أخته صحيفتين.

حسبما صرحت به رواية ابن هشام كتب في إحداهما، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2]. وفي رواية نقلها الزنجاني (ت 1360هـ) أن عمر اطلع على صحيفة أخرى كتب عليها صدر سورة الحديد[3].

غير أن الباحث عندما يقلب المصادر لكي يظفر بصورة دقيقة وواضحة عن طريقة كتابة الوحي في الفترة المكية، التى استمرت نحو ثلاثة عشر عاما فلا يظفر بشيء متكامل كالذي حصل في الفترة المدنية، في الوقت الذي كان فيه عدد من الصحابة يعرفون القراءة والكتابة، على رأسهم الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وغيرهم ممن كانوا بجانب الرسول ﷺ في تلك الفترة، بل إن بعضهم كان بجواره منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن.

وعلى الرغم من أن هناك مصادر تهمل قصة فاطمة وما حدث بينها وبين عمر ﷺ فإنه من الممكن الاعتماد عليها في أنه كانت هناك صحف تكتب فيها أجزاء من القرآن ـ سواء كانت هذه الصحف عند فاطمة أخت عمر، أو عند غيرها.

ومهما يكن الأمر حول اختلاف الروايات في هذا الموضوع فلا يصح القول، بعدم تدوين القرآن في الفترة المكية، بل يجب الجزم بأن القرآن الكريم كان يكتب فور نزوله منذ الفترة المكية، إلا أن وسيلة العلم لدينا بنبإ هذا الموضوع نلتمسها من تصريحات وإشارات خفيفة متفرقة هنا وهناك في

(2) سورة طه. الآية 1 ـ 7.

(3) انظر تاريخ القرآن للزنجانى 95.

بعض المصادر ولعل في الروايات السالفة الذكر ما يدل لذلك. غير أن مما لا شك فيه أن القراءة والكتابة لم تكونا منتشرتين - في المجتمع العربي بشكل واسع يؤكد ذلك:

أ - ما جاء في بعض الروايات من أن الذين يحسنون القراءة والكتابة في بداية الإسلام، كانوا قليلين جدا، إلى حد أنهم لا يزيدون على عدد أصابع اليدين إلا قليلا[4].

ب - وما جاء في بعضها الآخر من أنهم لم يجدوا في قبيلة بكر بن وائل كلها من يقرأ لهم كتاب رسول الله ﷺ الذي أرسله إليهم[5].

ج - ما جاء في رواية البلاذري (ت279 هـ) من أن الذين يعرفون القراءة والكتابة من أهل قريش محدودون بعدد محدد، إن ما جاء في هذه الروايات كلها يؤكد قلة عدد أهل هذه الصنعة في المجتمع الحجازي، حيث يقول: (دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا يكتب[6]). ويؤكد هذا الرأي أيضا صاحب العقد الفريد، إذ يشير إلى ذلك بقوله: (ولم يكن أحد يكتب بالعربية حين جاء الإسلام إلا بضعة عشر رجلا)[7].

ومهما يكن من أمر اختلاف هذه الروايات فإنها تدل على أن الكتابة كانت موجودة عند ظهور الإسلام، الأمر الذي جعل الصحابة يدونون ما ينزل من آيات القرآن الكريم ويحملون ما يدونونه إلى منازلهم لغرض الحفظ والاستذكار وهو ما يعني - حقيقة - أن كتابة القرآن الكريم قد بدأت بمكة، خلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين.

(4) راجع مقدمة ابن خلدون 419 .ومشكل الآثار 4/ 186.
(5) راجع مجمع الزوائد للهيثمي 3/ 305.
(6) انظر فتوح البلدان للبلاذري 477.
(7) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه. 4/ 147.

ومع أن الكتابة ـ زمن البعثة ـ لم تكن واسعة الانتشار في حواضر الحجاز ومع أن وسائلها بدائية، وغير ميسورة، فإن الرسول ﷺ كان لا يكتفي في صون القرآن بما تعيه ذاكرة الناس، بل كان يأمر من يستطيع الكتابة من أصحابه بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم.

وقد صرح ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) وغيره بأن أول من كتب القرآن الكريم بمكة من قريش (عبد الله بن سعد بن أبي سرح) (ت 37هـ)[8] أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، كان يكتب الوحي للنبي ﷺ ثم ارتد عن الإسلام، ويقدم الفراء قصة تحكي سبب ارتداده فيقول[9]: (إن النبي ﷺ أملى عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[10] فقال ابن أبي سرح: (فتبارك الله أحسن الخالقين) تعجبا من تفصيل خلق الإنسان، فقال النبي ﷺ: «**هكذا أنزلت علي اكتبها**»، فشك وارتد، وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذبا، لقد قلت مثل ما قال، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[11].

وممن كتب له ﷺ ـ وهو في مكة ـ (حنظلة بن الربيع التميمي) (ت 43هـ) الذي اشتهر بالكتابة، حتى غلب عليه لقب (الكاتب) . بعثه رسول

(8) أسلم قبل الفتح، وهاجر إلى المدينة، وكتب الوحي للنبي ﷺ ثم ارتد ولحق بمشركي مكة، ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، وحسن إسلامه، وأصبح من قادة الفتح الإسلامي، شهد فتح مصر، وكان صاحب الميمنة، ثم فتح أفريقيا، وشهد ذات الصواري. . .
ولي على صيعد مصر من قبل عمر بن الخطاب، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها توفي سنة (37 هـ) وقيل عاش إلى سنة (57 هـ) الإصابة لابن حجر 2/ 316. وراجع طبقات ابن سعد 7/ 190.

(9) معاني القرآن للفراء 1/ 334 رسم المصحف لغانم قدوري 96.

(10) سورة المؤمنون. آية 12 ـ 14.

(11) سورة الأنعام. آية 93.

الله ﷺ إلى أهل الطائف، ليعرض عليهم «أتريدون الصلح أم لا» فلما توجه إليهم قال رسول الله ﷺ: «**ائتموا بهذا وأشباهه**»[12]، وقد شهد مع خالد بن الوليد حروبه بالعراق وغيرها، ولما مات جزعت عليه امرأته فلامتها جاراتها وقلن لها: (يحبط أجرك).

فأنشدت ترثيه:

تعجبت دعد لمحزونة ... تبكي على ذى شيبة شاحب

إن تسأليني اليوم ما شفني[13] ... أخبرك قولا ليس بالكاذب

إن سواد العين أودى به ... حزني على حنظلة الكاتب[14]

وكان خالد بن سعيد بن العاص أول من كتب لرسول الله ﷺ بعد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأول من كتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، كما كان عبد الله بن الأرقم من المواظبين على الكتابة للنبى ﷺ.

وما يقال في عرب الحجاز، يقال في عرب نجد أيضا غير أن نسبة المتعلمين بمكة تظل أكثر من نسبتها في يثرب قبل الإسلام، لأن مجتمع مكة مجتمع تجاري، ومجتمع يثرب مجتمع زراعي، وحاجة المجتمع التجاري إلى القراءة والكتابة أكثر من حاجة المجتمع الزارعي إليه.

ونشير - هنا - إلى أن جل كتاب الوحي - من الصحابة - تعلموا القراءة والكتابة بعد ظهور الإسلام، ونستند في ذلك إلى شواهد، منها:

أن التعليم الجدي بدأ في المدينة بعد هجرة المسلمين إليها، بتعليم المهاجرين للأنصار.

---

(12) انظر مجمع الزوائد 2/ 65 والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر برقم 1859.

(13) شفه الحزن: أضناه وأضعفه.

(14) الإصابة لابن حجر 1/ 360.

(15) طبقات ابن سعد 2/ 22. دار صادر بيروت 1380 هـ.

وتذكر الروايات[15] أنه عقب غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين، وقع فيها أسرى من المشركين بيد المسلمين، فكان فداؤهم أربعة آلاف درهم لكل أسير، ومن لم يكن عنده شيء ـ أمر أن يعلِّم عشرة من غلمان الأنصار القراءة والكتابة.

وتفيد الروايات ـ أيضا ـ أن أكثر الأنصار الذين تعلموا ـ يومئذ قد أصبحوا ـ فيما بعد ـ من كتاب النبي ﷺ ـ وأنهم من أولئك الغلمان الذين تعلموا من أسرى بدر . وكان زيد بن ثابت الأنصاري ممن عُلّم[16] فصار له شأن عظيم بين كتاب النبي ﷺ بعد ذلك.

وهكذا نجد النبي ﷺ ـ بالإضافة إلى حرصه على حفظ القرآن الكريم نصا وأداء على نسق منضبط تمام الانضباط، كما علّمه جبريل عليه السلام ـ قد أعدّ مجموعة من كبار الصحابة لتدوين آيات القرآن الكريم فور نزولها وذلك بالوسائل والمواد الكتابية المتاحة في عصرهم، فور الانتهاء من نزول الوحي. وعلى الرغم من بذل تلك الجهود فقد ظلت كفة المكيين راجحة على كفة المدنيين من الناحية التعليمية، ومما يشهد لذلك أن من كتب الوحي للنبي ﷺ من المكيين قد بلغ ثمانية وعشرين كاتبا وربما كانوا أكثر، في الوقت الذي لم يتعد كتّابه من المدنيين العشرة.

وتفيد بعض الروايات أن عدد كتاب النبي ﷺ كانوا ستة وعشرين كاتباً، وقد نص البعض على أسمائهم، وأوصلهم البعض إلى اثنين وأربعين كاتباً[17]. وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن عدد كتاب الوحي قد بلغ أربعة وأربعين صحابيا، ورغم أننا لا نستطيع ـ في هذه العجالة ـ تتبع وتحديد عدد من كتب له الوحي على وجه الدقة والتحديد، إلا أنه ـ من خلال النصوص المتوفرة لدينا ـ نستطيع أن نجزم أن الرسول ﷺ قد اتخذ كتّابا يكلفهم كتابة ما ينزل من القرآن أولا بأول،

(16) نفس المرجع.

(17) انظر السيرة الحلبية. 3/ 326.

فكانوا يكتبون له في مكة والمدينة الوحي وغيره.

يدل لذلك ما رواه ابن عباس (ت 69 هـ) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كانت تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول: «**ضعوا هذه الآيات في السورة التى يذكر فيها كذا وكذا**»[18]. وعن البراء، أن النبي ﷺ قال له: «**ادع لي زيدا، وقل له: يجيء بالكتف واللوح**»، فلما جاء قال له: «**اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**»[19].

ويشير الأستاذ (حميد الله) ـ في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ـ إلى الظروف التى تم فيها تسجيل نص القرآن الكريم، حتى وفاة النبي ﷺ فيقول: (تجمع المصادر على أن النبي ﷺ كان يدعو واحدا من الصحابة الكاتبين، كلما نزل جزء من القرآن عليه، ويحدد في الوقت نفسه مكانة هذا الجزء الجديد، في مجموع ما نزل عليه سلفا، وتحدد الروايات أن النبي ﷺ كان يطلب إلى كاتبه ـ بعد الإملاء ـ أن يقرأ له ما كتب، حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون ناقصا)[20]. وهكذا استمر الخط البياني (للكتّاب) في تزايد مستمر، وخاصة بعد الهجرة النبوية، حيث اتخذ الرسول ﷺ كتّابا للوحي، على رأسهم زيد بن ثابت الأنصارى.

وتفيد الروايات أن أول من كتب له ﷺ بالمدينة ـ من الأنصار ـ أبي بن كعب (ت20 هـ) ـ على الأرجح ـ أحد فقهاء الصحابة، وأقرؤهم لكتاب الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «**أقرأ أمتي أبي بن كعب**»[21]، ويؤثر عنه أنه أول من كتب في آخر كتابه ـ من الرسائل والكتب ـ وكتبه فلان بن فلان.

---

(18) الترمذي. 5/ 272.

(19) صحيح البخاري. 3/ 145.

(20) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. د. موريس بوكاي. 154. دار المعارف بمصر. ط. 4. 1977.

(21) مسند الإمام أحمد 3/ 181.

ورغم كثرة عدد الكاتبين للوحي في هذه الفترة، إلا أن هذه الكثرة لا تقتضي أن جميع الكتّاب كانوا يلازمون الرسول دائما، ويكتب كل منهم جميع ما ينزل، لأن كثيرا منهم كان يخرج في السرايا التى يبعث بها الرسول ﷺ إلى بعض الجهات، فيشغلون بالجهاد عن بعض ما ينزل من القرآن الكريم . ولذا قد نجد عند الواحد منهم من القرآن ما لا نجده عند غيره لكن يمكن أن نستخلص من الحوادث والنصوص أن المكثرين من كتابة الوحي هم:

الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، والزبير بن العوام، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن رواحة[22] ـ رضى الله عنهم جميعا .. وأكثر هؤلاء جمعا زيد بن ثابت، حتى إن البخاري خصه في صحيحه من بين كتاب الوحي بترجمة (كاتب النبي)[23]، ويؤكد هذا الرأي الزنجاني مع إضافة قليلة فيشير إلى ذلك بقوله: (وكان ألزمهم للنبي ﷺ، وأكثرهم كتابة له، زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب)[24].

وإذا ضممنا النصوص والحوادث السابقة بعضها إلى بعض فإنه بلا ريب سوف نصل إلى نتيجة حتمية وهي أن نصوص القرآن الكريم التي كانت تنزل على النبي ﷺ كانت تدون أولا بأول من قبل كتّاب الوحي، بما في ذلك الفترة المكية التى كانت الظروف فيها غير مستقرة نسبيا، وقد لاحظنا من خلال حوادث ووقائع كيف كانت الصحف تكتب ويتداولها المسلمون سرا، ليتدارسوها في بيوتهم بعيدا عن أعين قريش، وعن أذاها المتصل، وهو ما يعنى ـ حقيقة ـ أن توثيق النص القرآني في ـ عهد نزوله ـ دليل وصوله إلينا سليما متكاملا كما أنزل.

(22) فتح الباري شرح صحيح البخاري 6/ 22.

(23) فتح الباري. 6/ 181.

(24) تاريخ القرآن. 98.

وإذا كانت ظروف الدعوة ـ في الفترة المكية ـ تتسم بالصعوبة من حيث عدم الاستقرار الذي يساعد على عملية التدوين العلني المنتظم، فإن الوضع في الفترة المدنية مختلف تماما، ولعل ما صرح به أحد كتاب الوحي ـ وهو يصف لنا الجو الذي كان يتم فيه تسجيل آيات القرآن الكريم ـ عقب نزول الوحي ـ مباشرة ـ يوضح ذلك:

1 ـ عن زيد بن ثابت (ت 45 هـ) أنه قال: (كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته برحاء شديدة، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف، فأكتب وهو يملي عليَّ، فإذا فرغت قال: «**اقرأه**» فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس)[25]، وهذا يعني أن النبي ﷺ كان يشرف بنفسه ـ مباشرة ـ على ما يكتب، ويراقبه ويصححه، كما يظهر من الرواية أن الظروف التي تم فيها التسجيل كانت مناسبة، وعلى ملإ من الناس.

2 ـ وأورد ابن أبي داود (ت 316 هـ) في كتاب (المصاحف) قوله: (دخل نفر على زيد بن ثابت، فقالوا: حدثنا بعض حديث رسول الله ﷺ فقال: ماذا أحدثكم؟ كنت جار رسول الله ﷺ فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي)[26]، وإذا كان لهذه الأخبار من دلالة، فإن أول ما تدل عليه أن الرسول ﷺ كان يهدف إلى تسجيل القرآن كله، فيؤمن بذلك عدم ضياع شيء منه، أو فقدانه، وهو بذلك قد سن جمع القرآن وكتابته) وأمر بذلك، وأملاه على كتبته.

3 ـ ما جاء في رواية نقلها الزنجاني أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد رسول الله ﷺ، ومحفوظا فى بيته، ومن هذا قولهم: (إن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «**يا علي، إن القرآن خلف فراشي فى**

(25) مجمع الزوائد للهيثمي 1/ 152.

(26) المصاحف لابن أبي داود. ص 7.

الصحف، والحرير، والقراطيس ،فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة»[27]، ومعنى هذا أن القرآن كان مجموعا ومكتوبا في صحف من الرقاع، والجلد ونحوها، محدد السور والمعالم، معروف البداية والنهاية ،كل ذلك كان في حياته ﷺ وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

غير أن هناك رواية أوردها الطبري (ت 310 هـ) مرفوعة إلى زيد بن ثابت (ت 45 هـ) مفادها أن النبي ﷺ قبض ولم يكن القرآن جمع في شيء[28]. وهذه الرواية رغم دلالتها الواضحة، إلا أن المستشرقين، وأصحاب الأهواء اتخذوا منها منطلقا للطعن في القرآن الكريم، وإذا حملنا تلك المطاعن على حسن نية الباحث، والتزام التجرد في البحث العلمي الدقيق، فإنه مما لا شك فيه أنهم جانبوا الصواب في فهمهم مثل هذه الأخبار.

ولكن أغلب الظن ـ إن لم يكن يقينا ـ أنهم يقصدون بذلك التشكيك في نص القرآن الكريم، وقد سلك هذا المسلك المستشرق (آرثر جفري) في مقدمته لكتاب (المصاحف) فبعد أن نقل الرأي الشائع لدى علماء المسلمين، الذي يقول بكتابة القرآن في عهد الرسول ﷺ قال: (وهذا الرأي لا يقبله المستشرقون، لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى، أنه قبض ـ ﷺ ـ ولم يجمع القرآن في شيء)[29].

ويحاول أن يقنع برأيه هذا القارئ، فيسنده إلى دليل آخر، فيقول: (وهذا يطابق ما روي من خوف عمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، لما استحرَّ القتل بالقرّاء يوم اليمامة . وسبب الخوف هو قتل القراء، الذين كانوا قد

(27) تاريخ القرآن للزنجاني 99.

(28) انظر جامع البيان للطبري 1/ 63.

(29) مقدمة كتاب المصاحف 5.

حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما[30].

وهذا القول لا يستند إلى دليل مقبول، ولا يقوم على حجة واضحة، وذلك لأن الادعاء بأن النبي ﷺ قبض ولم يجمع القرآن في شيء، ليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوبا حين ذاك، بل المراد أنه لم يجمع في مصحف بالشكل الذي نعرفه اليوم، يشهد لذلك العديد من الروايات التى جاء التصريح فيها بالكتابة في عهد الرسول ﷺ، والتي تؤكد أن القرآن، كان مجموعا في حياة النبي ﷺ. ومن هذه الروايات:

1 ـ ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: (كنت عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع...) الحديث.

قال الحاكم: وفيه الدليل الواضح، على أن القرآن إنما جمع على عهد رسول الله ﷺ. والذي يظهر أن المراد ـ بهذا التأليف ـ ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ.

2 ـ قول أبي عبد الله الحارث المحاسبي (ت 243 هـ): كتابة القرآن ليست محدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع، وإنما أمر الصدِّيق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ كان فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء)[31].

3 ـ ما يؤكده صاحب مقدمة كتاب المباني: من أن القرآن كان مجموعا على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها في موضع كذا، من سورة كذا[32] وأما خوف

(30) مقدمة كتاب المصاحف. 5.
(31) البرهان للزركشي. 1/ 238.
(32) مقدمتان في علوم القرآن. 20.

عمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، حين استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فلا يصح الاستدلال به على أن القرآن لم يكن مكتوباً في عهده ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن خوفهما إنما كان زيادة في التحري في صيانة القرآن، وحفظه، ليلتقي المحفوظ بالمكتوب، وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأتى إلا عن طريق التلقي من أفواه الحفاظ، والرواية الشفوية من الضابطين له.

في الاتجاه المتقدم نفسه سار المستشرق الألماني (بروكلمان) حيث يقول: (ولعل نجوما متفرقة من الوحي كانت قد كتبت في حياة الرسول ﷺ ولكن أكثر الوحي كان يروى ـ بلا ريب ـ شفاها، من الذاكرة فحسب)[33].

والحقيقة إن هذا بعيد عن الصواب، ولا يخلو من الهوى والزيغ، خاصة وأن الشواهد تشير إلى عكس ما يقوله تماما، بل وأكثر من ذلك إذ تؤكد أنه ـ زيادة على ما كان يكتب ويوضع في بيت النبي ﷺ ـ قد كان هناك بعض المصاحف المتداولة عند بعض الصحابة أيضا، في عهد الرسول ﷺ، والأخبار مجمعة على تعدد هذه المصاحف، إذ لو لم يكن هناك جمع بالمعنى الذي نقصده، لما كانت تلك المصاحف أصلا، وفي الحقيقة إن وجودها نفسه دليل الجمع.

ويورد ابن أبي داود (ت 316 هـ) قائمة طويلة بأسماء مصاحف الصحابة وعقب عليها بما فيها من الاختلاف، هذا الاختلاف الذي يعود سببه ـ في نظري ـ إلى نزول القرآن على سبعة أحرف، وقد عقد لذلك بابا سماه (باب اختلاف مصاحف الصحابة)[34].

ولكن السؤال الذي يطرح هنا: متى كتبت هذه المصاحف؟ وكيف أقرَّت؟.

(33) تاريخ الأدب العربي 1/ 339 ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين.

(34) انظر كتاب المصاحف. 103.60.

ولعل الجواب يكمن فيما نقله الزنجاني عن الآمدي (ت 617 هـ) إذ يقول: (إن المصاحف المشهورة في زمن الصحابة كانت مقروءة عليه ﷺ، ومعروضة، وكان مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه آخر ما عرض على النبي ﷺ، وكان يصلي به إلى أن قبض)[35]

فهذه الرواية تصرح بأن «المصاحف» كتبت في عهد النبي ﷺ وقد عرضت عليه ولعل مما يعزز هذا الاتجاه تلك الأحاديث التى رويت مرفوعة، والتي تفيد ـ ضمنا أو صراحة ـ أن المصاحف كانت موجودة على عهد رسول الله ﷺ عند الصحابة، تامة كانت أو ناقصة، وكانوا يقرءونها، مما جعل النبي ﷺ يقرر لها طائفة من الأحكام، وهو ما يتضح من النصوص الآتية:

1 ـ ما أخرجه الطبراني (ت 360 هـ) في الأوسط، والبيهقي(ت 458 هـ) في الشعب من حديث أوس الثقفي ـ مرفوعا ـ «**قراءة الرجل في غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضاعف على ذلك إلى ألفي درجة**»[36].

2 ـ ما أخرجه البيهقي (ت 458 هـ) ـ بسند حسن ـ عن ابن مسعود (ت 32 هـ) ـ موقوفا. «**أديموا النظر في المصحف**»[37]. ولعل هذا ما جعل أكثر الصحابة يقرءون في المصحف، ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف.

3 ـ ما روي عن عثمان بن أبي العاص من أنه قال: [كان فيما عهد إليّ رسول الله ﷺ «**لا تمس المصحف وأنت غير طاهر**»][38].

---

(35) تاريخ القرآن للزنجاني 84. لا يقصد بمصحف عثمان هذا المصحف الذى كتب عند توحيد الرسم، بل المقصود ما كان بحوزته في حياة النبي ﷺ.

(36) مجمع الزوائد 7/ 165 والبرهان للزركشي 1/ 462. وانظر الإتقان للسيوطي 1/ 300.

(37) إتحاف السادة المتقين للزبيدي 4/ 495 والإتقان للسيوطي 1/ 300.

(38) المصاحف لابن أبي داود. 212.

4 ـ ما روي عن عبد الله بن عمر (ت 73 هـ) من أنه قال: (نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالمصحف إلى أرض الشرك، مخافة أن يناله العدوّ)[39]، وقد جاء هذا الحديث من عدة طرق، وروي بأكثر من لفظ وعلة المنع ـ في الجميع ـ مخافة أن ينالوا منه شيئا.

5 ـ ما روي عن عبد الله بن عمرو (ت 65 هـ) من أن رجلا أتى النبي ﷺ بابن له، فقال: يارسول الله: إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار، ويبيت بالليل، فقال رسول ﷺ: «**أما يسرك أن ابنك يظل ذاكرا، ويبيت سالما**»[40].

6 ـ ما رواه ابن ماجة القزويني (ت 273 هـ) وغيره، عن أنس (ت 95 هـ) ـ مرفوعا ـ «**سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته**»، وهو في قبره، وعدّ منهن من ورّث مصحفا[41].

فهذه النصوص وما ماثلها دليل صريح على وجود جمعي، وكيان تأليفي للقرآن الكريم في صحف، زمن الرسول ﷺ.

غير أن الذي يجب أن يلاحظ ـ هنا ـ أن القرآن الكريم لم يكن في شكله الخارجي ـ على هذه الهيئة في حياة الرسول ﷺ وإن كان النص مطابقا تماما لما أملاه على كتبة الوحي. أما الشكل الخارجي، فقد طرأ عليه بعض الشيء إذ لم يكن كتابا أو مجلدا كما نراه اليوم، لأن القرآن نزل أجزاء متفرقة، تتباين أطوالها من سورة كاملة، إلى آية واحدة، وأحيانا إلى أجزاء من الآية، ولهذا كان الجمع ـ في تلك المرحلة ـ جمع تسجيل، بمعنى كتابة آيات القرآن المتفرقة وترتيبها، ووضعها في مكانها الخاص من سورها، ولكن مع بعثرة الكتابة، وعدم أخذها صورة الكتاب، كما نعرفها اليوم،

(39) المصاحف لابن أبي داود. 205.

(40) مسند الإمام أحمد. 2/ 173.

(41) مجمع الزوائد 1/ 167 والإتقان للسيوطي. 2/ 488.

لاختلاف أنواع ومساحات المواد التى كانت عليها الكتابة، وتفرقها بين مواد خشبية أو جلدية، أو خزفية، أو عظمية، كما تميزت المرحلة الأولى بوجود عدد كبير من حفظة القرآن كانوا أقوياء الحافظة، وكأنهم نسخ حيَّة للقرآن كاملا، في صورته الشفوية النهائية.

ولعل هذه الصورة توضح قيمة هذا المنهج المزدوج في جمع النص القرآني وحفظه بالكتابة والذاكرة معا.

مواد الكتابة:

استخدم الصحابة ـ في الكتابة ـ المواد المستعملة في عصرهم والموجودة في شبه الجزيرة العربية، فاستعملوا الجلود، والعظام والحجارة، والألواح الرقيقة، كما استعملوا ـ أيضاً ـ السعف والجريد، إلا أن الكتابة على الجلود كانت أكثر شيوعا، لتيسرها من جهة ولسهولة الكتابة عليها من جهة أخرى، فهي صناعة محلية كانت تصنع بشكل رقيق أملس، ولهذا سميت بالرق[42]، لنعومتها ورقتها المتناهية.

كما أن لها عدة خصائص أخرى، منها:

1 ـ أنها خفيفة الوزن، ذات مرونة تجعلها تنطوي على شكل دائري.

2 ـ أن لها مقاسات مختلفة تتناسب مع الآيات المطلوب كتابتها.

3 ـ أنها تقاوم عوامل التلف، فهى تبقى مدة طويلة من الزمن لا تتغير، ولا تتلف.

وتشير المصادر إلى أن الحجاز كانت مشهورة بصناعة الجلود، إلى درجة أنهم كانوا يصدرونها إلى الشام، ومصر، والحبشة.

ومما يدل على براعة الحجازيين في صناعتها، وإتقان هذه الصنعة ـ

(42) الرق: جلد رقيق يكتب عليه.

إلى حدّ أنهم فاقوا فيها أقرانهم ـ أن قريشا حينما أرسلت وفدها إلى النجاشي ملك الحبشة، لمحاولة حمله على طرد المسلمين الذين هاجروا إلى مملكته، وإرجاعهم إلى مكة، لم تجد هدية مناسبة لتقديمها إليه وإلى رجالاته أفضل من الجلود المدبوغة في مكة، لأنها أحب شيء لديهم. يقول عمرو بن العاص (ت 43 هـ) أحد أعضاء الوفد: (وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأديم)[43].

ولعل في حديث جمع القرآن الذي رواه البخاري (ت 256 هـ) وغيره عن زيد بن ثابت فيه ما يشير إلى المادة التى كان يكتب عليها القرآن الكريم في عصر الرسول ﷺ حيث يقول: ـ بعد أن سلسل قصة الجمع، والحوار الذي دار بينهم . . . فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب[44] واللخاف[45] وصدور الرجال[46].

وقال السيوطى (ت 911 هـ) ـ بعد ما نقل الحديث السابق ـ: وفي رواية (والرقاع)[47] وفي أخرى وقِطَع الأديم، وفي أخرى (والأكتاف)[48]، وفي أخرى والأضلاع. . . وفي أخرى (والأقتاب)[49] هذه إذن هي المواد التي كان الصحابة يستخدمونها في الكتابة، وكانت شائعة في بيئتهم، تتوزع ما بين

(43) انظر السيرة النبوية لابن هشام 3/ 8/ 3.

(44) العُسُب: جمع عسيب، وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون على الطرف العريض.

(45) اللخاف: - بكسر اللام وخاء معجمة، خفيفة، آخره فاء، جمع لَخْفة، بفتح اللام وسكون الخاء، وهي الحجارة الرقاق، وقال الخطابي: صفائح الحجارة. راجع الإتقان للسيوطي. 1/ 167.

(46) صحيح البخاري. 3/ 145.

(47) الرقاع: جمع رقعة، قد تكون من الجلد، أو ورق، أو كاغد.

(48) الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو للشاة، كانوا إذا جف كتبوا عليه.

(49) الأقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير، ليركب عليه. الإتقان 1/ 67.

مواد نباتية، وحيوانية، وجمادية، مما يصلح في النهاية لغرض الكتابة.

ولعل ما يزيد المسألة وضوحا، أن المادة التي جمع (أبو بكر) القرآن فيها، قد كانت من القراطيس، وقيل من الورق.

أما ما روي عن عمارة من أن زيد بن ثابت قال: (أمرني أبو بكر فكتبته في قِطَع الأديم والعُسُب)[50]، فهو غير واضح، إنما كُتِب في الأديم والعسب أولا، قبل أن يجمع في عهد أبي بكر، والذي أرتضيه ما قدمناه أولا، ثم جمع في المصحف في عهد أبي بكر.

أما الحبر المستعمل في الكتابة، فقد كان يستخرج من بعض النباتات، والأزهار، أمثال العليق[51] الأسود، والعصعص، والزاج[52] والصمغ، وما أشبهها. وقد يصنع من مادة الكربون الناتجة من الدخان المتراكم في المطابخ التي تعمل بالخشب، والذي يطلق عليه السخام[53]، حيث تجمع هذه المادة، وتخلط في الماء بمادة لزجة من أجل جمعها وزيادة كثافتها وتماسكها. غير أن الحبر المستخرج من النبات يبقى الأسهل استعمالا والأكثر انتشارا، مما جعل العرب يستعملونه إلى عهد قريب، (وحتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري كان الحبر المستعمل في أكثر البلاد العربية، حبرا محليا، يصنع من النبات، وتكتب به المصاحف، والكتب، وغيرها، ولا تزال المخطوطات المكتوبة بالحبر النباتي المحلي تحتفظ برونقها، وخطها الجميل)[54].

والسؤال الذى يطرح: بماذا كانوا يكتبون؟

---

(50) انظر جامع البيان للطبري 1/ 59. والإتقان للسيوطي 1/ 167.

(51) العليق: نبت يتعلق بالشجر، ويتلوى عليه، يستخرج منه مادة تكوّن الحبر الأسود.

(52) الزاج: ملح معروف يقال له: الشب اليماني. راجع معجم فنون اللغة. 2/ 75.

(53) السخام: سواد القدر، ويقال ليل سخام: أسود.

(54) صبح الأعشى 2/ 475.

ومن البدهي أن تكون الإجابة يكتبون (بالقلم) ولكن أي أنواع الأقلام هو؟.

إن الأقلام التي استخدمت في كتابة آيات القرآن الكريم، هي الأقلام المصنوعة من القصب، المسننة برؤوس ناعمة، تلك الأقلام التي عرفها العرب قديما، ثم نزل القرآن الكريم بسورة تسمى (سورة القلم) وجاء في مطلعها القسم بالقلم، وبما يسطره، قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[55] فأقسم الله تعالى به ـ وهو ما يعد غاية في الشرف.

فالقلم أشرف آلات الكتابة، وأعلاها رتبة، فهو المباشر للكتابة دون سواه وغيره من آلات الكتابة تعد كالأعوان . وهو مأخوذ من القُلَّام، وهو شجر رخو، فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلما، وسمي قلما قيل لاستقامته، كما سميت القداح أقلاما، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَۖ﴾[56] قال بعض المفسرين: تشاحوا في كفالتها، فضربوا عليها بالقداح، والقداح مما يضرب به المثل في الاستقامة[57]. وقيل لقَلْم رأسه، لأنه لا يسمى قلما حتى يُبرى، أما قبل ذلك فهو قصبة، كما لا يسمى الرمح رمحا إلا إذا كان عليه سنان وإلا فهو قناة[58]. وقيل لأعرابي: ما القلم؟ ففكر ساعة وقلّب يده ثم قال: لا أدري. فقيل له: توهَّمه، قال: هو عود قُلّم من جوانبه كتقليم الظفر، فسمي قلما.

(55) سورة القلم. آية 1.

(56) سورة آل عمران. آية 44.

(57) انظر لسان العرب مادة (قلم) ج12 / 490.

(58) صبح الأعشى للقلقشندي 2/ 450.